293 - ـ فصل : التعفف عن مال الحكام .

رأيت خلقا من العلماء و القصاص تضيق عليهم الدنيا فيفزعون إلى مخالطة السلاطين لينالوا من أموالهم و هم يعلمون أن السلاطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها و لا يخرجونها في حقها .

فإن أكثرهم إذا حصل له خراج ينبغي أن يصرف إلى المصالح و هبه لشاعر .

و ربما كان معه جندي يصلح أن تكون مشاهرته عشرة دنانير فأعطاه عشرة ألاف .

و ربما غزا فأخذ ما ينبغي أن يقسم على الجيش فإصطفاه لنفسه .

هذا غير ما يجري من الظلم في المعاملات .

و أول ما يجري على ذاك العالم أنه قد حرم النفع بعلمه و قد رأى بعض الصالحين رجلا عالما يخرج من دار يحي بن خالد البرمكي فقال : أعوذ ا من علم لا ينفع .

ألم ير المنكرات و لا ينكر و يتناول ل من طعامهم الذي لا يكاد يحصل إلا بظلم فينطمس قلبه و يحرم لذة المعاملة للحق سبحانه ثم لا يقدر لك أن يهتدي بك أحد بل ربما كان فعل هذا سببا لإضلال الناس و صرفهم عن الإقتداء به فهو يؤذي أميره لأنه يقول : لولا أنني على صواب ما صحبني و لأنكر علي .

و يؤذي العوام تارة بأن يروا أن ما فيه لأمير صواب و تارة بأن الدخول عليه و السكوت عن الإنكار جائز .

أو يحبب إليهم الدنيا و لا خير و ا في سعة من الدنيا ضيقت طريق الآخرة .

و أنا أفتدي أقواما صابروا عطش الدنيا في هجير الشهوات زمان العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرضى و بقيت أذكارهم تروى فتروي صدأ القلوب و تجلو صداها .

هذا الإمام أحمد يحتاج فيخرج إلى اللقاط و لا يقبل مال سلطان .

هذا إبراهيم الحربي يتغذى بالبقل و يرد على المعتصم ألف دينار .

هذا بشر الحافي يشكو الجوع فيقال له : يصنع لك حساء من دقيق ؟ .

فيقول : أخاف أن يقول ا لي : هذا الدقيق من أين لك ؟ .

بقيت و ا أذكار القوم و ما كان الصبر إلا غفوة نوم .

و مضت لذات المترخصين و بليت الأبدان و وهن الدين .

فالصبر الصبر يا من و فق و لا تغبطن من إتسع له أمر الدنيا .

فإنك إذا تأملت تلك السعة رأيتها ضيقا في باب الدين .

و لا ترخص لنفسك في تأويل فعمرك في الدنيا قليل : .

(و سواء إذا انقضى يوم كسرى ... في سرور و يوم صابر كسره) .

و متى ضجت النفس لقلة صبر فأتل عليها أخبار الزهاد فإنها ترعوي و تستحي و تنكسر إن كانت لها همة أو فيها يقظة .

و مثل لها بين ترخص علي بن المديني و قبوله مال ابن أبي داود و صبر أحمد .

و كم بين الرجلين و الذكرين .

و انظر ما يروى عن كل واحد منهما و ما يذكران به .

وسيندم ابن المديني إذا قال أحمد : [سلم لي ديني]